

اللغات العربية شعار الإسلام

لدكتور عز الدين الخطيب النميمي

مدير الوعظ والارشاد
(الأردن)

معنى مطلقا لان اصل وضع اللفظ اللغوي قائم على ارادة معنى له . ولهذا فقد وصفه الله تعالى بوصف لفظه العربي ، قال تعالى « انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » . وقال « انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » .

والقرآن الكريم كتاب بين العبارة ، سلس الاسلوب جزل الآداب ، فخم التعبير ، مستقيم الفكرة ، محدد الغاية ، منسجم الفكرة والغاية ، وقد ورد فيه آيات تدل دلالة تاطعة على التلازم الوثيق بين وضوح فكرته وبين عربيته ، قال تعالى « نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » وورد فيه آيات تدل دلالة تاطعة على التلازم الوثيق بين عربيته وبين استقامة فكرته وانسجامها قال تعالى « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون » . وورد فيه آيات تدل دلالة تاطعة أيضا على التلازم بين يسره وسهولته وبين عربيته قال تعالى « فانها يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » ولسان النبي هو اللسان العربي والتعبير « بانها » في الآية له دلالة على التلازم بين يسره وعربيته . ووضوح الفكرة واستقامتها ويسرها هي العناصر الرئيسية التي تحقق للفكرة الثبات والبقاء والانتشار وذلك كله يجعلنا نجزم بالتلازم الوثيق بين

التلازم بين الاسلام واللسان العربي تلازم وثيق العرى ، عميق الاثر ، اذ لا يتصور الاسلام المؤثر دون العربية ، ولا يتصور انتشار العربية دون الاسلام ، لانها متلازمان في حقيقتها ، ومتلازمان في بقائهما ، ومتلازمان في حركتهما وانتشارهما ، فان الاسلام والعربية طاقتان متحدتان أحدثتا في حياة الانسان آثارا عظيمة في تقدمه الفكري والعلمي والخلقي والاجتماعي .

ومعرفة مدى هذا التلازم بين الاسلام واللسان العربي تقتضي معرفة مدى التلازم بين اللسان العربي وبين مصدر الاسلام الاول واعني به القرآن الكريم ، اذ لا يمكن للمرء ان يحكم الحكم الصحيح على مدى التلازم بين امرين متلازمين اذا ضرب صفحا عن بحث التلازم واستقصائه بين أصولهما ، بل لابد من تحديد التلازم بين الاصول الاولى لكليهما عندئذ يخرج بالنتيجة الصحيحة في الحكم على مدى التلازم .

وذلك ان القرآن الكريم كتاب عربي اللغة عربي الاسلوب ، فانه اللفظ العربي الذي أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بما يدل عليه من معانيه ، ولذلك كان القرآن هو مجموع اللفظ المنزل والمعنى المشتغل عليه اللفظ ، فمعانيه وحدها ليست قرآنا ولا تسمى قرآنا ، والفاظه وحدها لا يتصور أن تكون دون

(1) من كلام ابن تيمية

القرآن الكريم وبين اللسان العربي وبالتالي يجعلنا نجزم بأن التلازم بين الإسلام والعربية أمر مفروغ منه . لأن التلازم قائم بين أساس الإسلام وهو القرآن وبين اللسان العربي ، بل إن سر اعجاز القرآن قائم على كونه عربيا في اللغة والاسلوب ، ولست في هذا الوطن في معرض الحديث عن اعجاز القرآن وعن أدبه الشامخ وبلاغته الرفيعة وأسلوبه المعجز ، لأن الحديث هنا عن عريته التي لم يخالطها شيء من الأعجمية قط قال تعالى « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي » بصيغة الاستفهام الإنكاري مما يجعلنا نجزم بأنه ليس في القرآن لفظ غير عربي ، وأما ما قيل عن وجود بعض الالفاظ غير العربية فيه من نحو سجيل وقسطاس واستبرق فانها الفاظ عربية بالتعريب ، إذ كل لفظ معرب بطرق التعريب الصحيحة هو جزء لا يتجزأ من اللغة العربية .

ومجمل القول أن العربية والإسلام متلازمان تلازما وثيقا وهما في تفاعلها وتأثيرهما أشبه بالمصباح المضيء، تياره الإسلام وجهازه الظاهر العربية وضوؤه المعاني المسامية التي يستضيء الإنسان بها فيحیی في نور بعيدا عن الظلمات .

لغة الإسلام واحدة :

لابد لهذا الدين الذي نزل لجميع البشر على صعيده من لغة واحدة تبين عن عقيدته وتفسح عن حضارته ، وتنبئ عن أفكاره وتعبير عن مفاهيمه ، وتضم أحكامه وحكمه وقواعده وتوضح حقائقه ومراميه، ومقاصده على الوجه الأكمل ، ومن العبث أن يؤدي على وجهه الأكل بلغات متناثرة تعبر كل لغة عنه بطريقة لا تنسجم مع اللغة الأخرى ، فلا بد أن يكون بلغة واحدة ليكون له لونه الخاص به وذاتيته المتميزة عما عداه ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان أمة الإسلام أمة واحدة بنص القرآن الكريم قال تعالى « وان هذه أمكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » وقال « انها المؤمنون أخوة » وقد أخبر النبي عليه السلام أن أفراد هذه الأمة وشعوبها وحدة واحدة في الفكر والشعور حيث قال « ترى المؤمنین فی توادهم وتعاطفهم وتراحبهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » وكيف يتوثق بينهم ذلك التواصل الفكري والوجداني إذا كانت لغاتهم مشتتة والسنتهم مختلفة ؟ إذن لا محيص من جمعهم على لسان واحد ليستنى لهم تثبيت وحدتهم والتفاهم على مصالحهم قال ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم « اللسان العربي شعار الإسلام وأهله » ،

واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون ، ولهذا كان كثير من الفقهاء أو أكثرهم يكرهون في الإدمية التي في الصلاة والذكر أن يدعى الله أو يذكر بغير العربية .

على أن اللغة أية لغة لا تكفي للتوحيد بين الأفراد والشعوب إذا كانت مجردة من العقيدة والرسالة فالصراع بين القبائل العربية في الجاهلية لم تمنعه اللغة العربية التي كان العرب جميعا يتحدثون بها ، ولم تحد هذه اللغة من غلواء هذا الصراع بل كانت القبائل العربية تزداد يوما بعد يوم في تنافرها وصراعها . واللغة الإنجليزية لم تكف في توحيد الشعب البريطاني والشعب الأميركي فضلا عن أنها لم تصلح لأن توحيدنا صادقا بين الشعب الإنجليزي والشعب الإيرلندي ، إذن لابد من عامل جوهري يلزم اللغة ويمتزج بها لكي يتحقق التوحيد والتأليف بين الشعوب ، ذلك العامل هو العقيدة الصحيحة الصادقة والنظام الصحيح المتجاوب مع فطرة الإنسان ، وهذا لا يتصور إلا في الإسلام الذي تعتبر العربية جزءا منه ، والقرآن يصرح بذلك تصريحاً تاماً في كثير من المواطن . قال تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » أي بالإسلام الذي تعتبر العقيدة جزءا منه . وقال تعالى : « والف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » أي بالإسلام الذي تعتبر العربية جزءا منه .

وقد أراد الله تعالى اللغة العربية لهذا الدين لما فيها من طاقة فذة في التعبير والبيان ولما فيها من المرونة والاتساع ، وهي أقدر اللغات على الأداء وأتواها في الاشتقاق والنحت والتصريف وأغناها في المفردات والصيغ والأوزان ، ومع هذا كله فهي مرنة غاية المرونة تتسع لتعريب أسماء الأشياء التي تجد في حياة الإنسان، وهذه الجوانب في اللغة العربية تعتبر من العناصر الرائعة لقوة هذه اللغة وصلاحياتها للبقاء ، وحركة الترجمة التي حدثت في العصور الأولى للإسلام تعطي الدليل الكافي على قدرة هذه اللغة ، إذا لم يكن هناك فن أو علم أو ثقافة أو فكر إلا وقت هذه اللغة ببيانه ونقله لاهلها ، ولو كانت لغة قاصرة لما استطاع الأوائل ترجمة كل ما في علوم الأمم وثقافتهم من مصطلحات في مجال الطب والفلك والهندسة والكيمياء والرياضة ، ولما استطاع أساطين هذه العلوم الإبداع في التعبير عن آرائهم وملاحظاتهم الدقيقة .

المسلمون يدركون التلازم بين العربية والاسلام :

ويعتمد الاسلام في بيان عقيدته الشاملة عن عالم الغيب وعالم الشهادة وفي تقرير خطوطه العريضة واحكامه الشاملة وتواعده العامة في التشريع الخالد الصالح لكل زمان ومكان يعتمد في كل ذلك على اللغة العربية بما فيها من طاقة في الصيانة والشمول والمرونة والانساع ، وقد أدرك هذه الناحية في امتزاج الطاقة العربية مع الطاقة الاسلامية المسلمون الاولون فقد كتب عمر الى ابي موسى الاشعري رضي الله عنهما : « اما بعد فنفقوا في السنة وفتقوا في العربية واعربوا القرآن فانه عربي » ، وفي قول آخر لعمر « تعلموا العربية فانها من دينكم » وهذا الذي أمر به عمر رضي الله عنه من فقه العربية يدل بصراحة تامة على ان العربية من الدين لاتنفصل عنه ولا ينفصل عنها وهما في تفاعلها كشجرة خضراء ممتدة الاغصان وارفة الظلال طيبة الاكل .

وقد استمد الفقهاء من هذه الفكرة بعض الاحكام الهامة التي كان لها اثر كبير في انتشار اللغة العربية بين غير العرب من الناس ، منها : —

اولا — انه لايجوز للمسلم ان يتعبد الله تعالى في الصلاة الا باللغة العربية تحقيقا لقوله تعالى « فاتروا ما تيسر منه » اي من القرآن ، وقد قصر العلماء جميعا هذه الآية على تراءة القرآن في الصلاة ، ولذا جعلوا القراءة فيها فرضا وهو انها يسره الله بلسان عربي مبين فلا يقرأ الا بالعربية ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال « صلوا كما رايتموني اصلي » وهو لم يصل الا باللغة العربية .

ثانيا — اذا كان رجل اعجمي اسلم حديثا واراد ان يصلي فهل يقرأ القرآن في الصلاة بلغته لتكون صلاة صحيحة ام لا بد من تراءة القرآن العربي ..؟ جميع الائمة على وجوب القراءة بالقرآن العربي والمأجز عنها يسكت في الصلاة ولا يقرأ شيئا .

فمثل هذه الاحكام كانت ذات اثر كبير على انتشار اللغة العربية بين غير العرب من المسلمين لانه يفرض عليهم ان يتعلموا العربية ويحتم عليهم ان يقرؤوها في صلاتهم قال ابن تيمية « واعلم ان اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرا قويا بينا » .. وقال « وايضا فان نفس اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب فان فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم الا باللغة العربية وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب » .

ويتبين من ذلك ان انتشار العربية كان متوقفا على انتشار الاسلام اذا لم يقدم غير العرب من المسلمين على

تعليم اللغة العربية الا لما تحمله اليهم من الدين والحضارة والقيم وقد أشار القرآن بالاشارة اللطيفة الى ان العرب لم ينتشر ذكرهم الا بالاسلام الذي انعم به عليهم وعلى غيرهم قال تعالى « فاستمسك بالذي اوحى اليك انك على صراط مستقيم . وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » اي عن هذه النعمة التي بسببها ارتفع ذكركم وانتشر بين الناس . لانه بلسان عربي مبين — وهو لسانكم ، نرد على ذلك ان القرآن الكريم كتاب العربية الاول ومصدر فكر المسلمين لاتمر على المسلمين ساعة من ليل او نهار الا ويتلونه في صلواتهم وخطواتهم ، ويتدارسونه في مدارسهم ويتلقون حكمه واحكامه في مساجدهم ويتعبدون الله به في بيوتهم ويستشهدون به في احاديثهم يقتبس منه شعراؤهم ويستشهد به خطباؤهم فهو في كل بيت ومدرسة ومنتدى لا يغيب عن المسلمين طرفه عين وهو في أعلى مراتب البلاغة والفصاحة فكيف لا يكون له اثر في تقويم تعابيرهم وذوتهم وادبهم وسلوكهم ولهجاتهم ، ولو لم يكن هذا الكتاب موجودا بين ايدينا لرايت العرب وقد انقصت عرى لغتهم وتشعبت لهجاتهم بطريقة مخيفة رهيبة مذهلة .

التلازم في التشريع واثره :

وهذا التلازم بين اللغة العربية وبين نصوص القرآن والحديث جعل هذه النصوص ذات طابع متميز وخصائص فريدة رفعتها الى منزلة عالية لم يتناول اليها تشريع سابق ولا يرقى الى منازعتها تشريع لاحق ولا عجب في ذلك لان القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ثم فضلت من لدن حكيم خبير ، ولان الحديث صاحبه لانطق عن الهوى . قال تعالى « وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى » .

ومن الامور المدركة لاولى العلم ان النصوص التشريعية الاسلامية — لغزارة معانيها العامة التي تتناول الكليات والجزئيات هي أصلح النصوص التشريعية ميدانا للفكر والعقل ، وأوسعها مجالاً للتعميم ، وأخصبها تربة لانبات القواعد التشريعية العامة . يتمثل ذلك في طبيعة جعلها وطبيعة الفاظها وطريقة سبكها وصياغتها من حيث تناولها للمنطوق والمفهوم والدلالة والتعليل والمقايسة ، مما يجعل استنباط الاحكام منها متيسرا دائما شاملا لاعمال الانسان مهما تنوعت وتفرعت وتعقدت .

ولكن هذه النصوص التشريعية مع ملاحظة انها جاءت تشريعا لجميع الشعوب والامم ، تقضي بضرورة توفر الاجتهاد ، ويحتمية وجود المجتهدين كعامل اساسي

في تحقيق فاعلية هذه النصوص وإيجابيتها وتطبيقها في كل وقت على الحوادث المستجدة في حياة الإنسان والتي لا تدخل تحت الحصر ، ولولا الاجتهاد لبقيت الحوادث تتكاثر في حياة الإنسان دون معرفة حكم الله فيها وبذلك تصاب الشريعة بالتوقف ولا تتقدم خطوة واحدة لاعطاء الإنسان حلاً لمشاكله الطارئة .

وبما ان النصوص التشريعية الاسلامية بمميزاتها وخصائصها تلك ، جاءت عربية اللغة والاسلوب كان من أهم شروط الاجتهاد أن يكون المجتهد عالماً باللغة العربية وضروب تعبيرها ، واقفاً على أسرار بلاغتها وعلى وجوه دلالة الفاظها وجمالها على المعاني ، ويشترط أن يتوفر فيه المعلومات اللغوية من نحو وصرف وإبلاغ وما إلى ذلك من علوم اللغة .

ولهذا كله فقد أولى العلماء المسلمون عنايتهم بدراسة اللغة العربية وتقصيها واستقراء جوانب دلالات الألفاظ والجمل فبحثوا - وبخاصة علماء الأصول - العموم والخصوص والإطلاق والتقييد والترادف والاشتراك والحقيقة والمجاز والمنطوق والمفهوم والأمر والنهي ، نعم بحثوا كل ذلك بطريقة عميقة مستنيرة شاملة بحثاً أصولياً تشريعياً ، مما لم يتيسر لامة تجاه لغتنا وديننا ، وبهذا يظهر إلى أي مدى تتلازم اللغة العربية مع الشريعة الاسلامية في البقاء والانتشار .

ولهذا فقد خرجت اللغة العربية بعد مجيء الاسلام من لغة قومية إلى لغة انسانية عالمية وخرجت من لغة سيف وجمل إلى لغة رسالة وحضارة ودين ، حتى لقد أصبح من المستهجن على المسلمين أن يتحدثوا بلغة غير اللغة العربية ، وهذا البرد في كتابه الكامل وهو في مجال رأيه في تصنيف الناس إلى نبلاء وأخساء يعتبر أحد الاخساء .. « رجل سمعته في مصر يتكلم بالفارسية » ، وهذا ابن تيمية يحمل بشدة على من يعتاد الخطاب بغير العربية في شؤون العامة ويعتبر تصرفه هذا منافياً لروح الاسلام ولغة القرآن ، يقول في كتابه « اقتضاء الصراط المستقيم » ، وأما اعتياد الخطاب بغير العربية التي هي شعار الاسلام ولغة القرآن حتى يصير ذلك عادة للعصر وأهله ولاهل الدار وللرجل مع صاحبه ولاهل السوق أو للامراء أو لاهل الديوان أو لاهل الفقه فلا ريب أن هذا مكروه فانه من التشبه بالاعاجم .

ويذهب ابن خلدون إلى أبعد من هذا فيرى أن تعلم علوم العربية من لغة وأدب وقواعد وبيان ونحو وصرف ضروري محتم على أهل الشريعة « إذ مأخذ الأحكام

الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب من الصحابة والتابعين وشرح مشكلاتها من لغاتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة .

وبدافع هذه النظرة إلى العربية وعلاقتها بالاسلام قام المسلمون المتقدمون عندما سكنوا أرض الشام والعراق وخراسان ومصر والمغرب وأهلها يتحدثون بلغات أعجبية بتعويد أهل هذه الاقطار اللغة العربية حتى غلبت عليهم وانتشرت بينهم وأصبح أبنائها فيما بعد هم رواد العربية وحفظت لسانها ، ومعجمات اللغة وكتب النحو والصرف خير دليل على صحة هذا القول ، ويبدأ الزمخشري الأعجمي وهو في قمة علماء العربية وفي قمة علماء التفسير يبدأ كتابه المفصل بقوله « الحمد لله على أن جعلني من علماء العربية وجعلني على الغضب للعرب والعصية » .

العربية هي اللغة الرسمية للدولة الاسلامية :

ثبت أن النبي عليه السلام وجه الكتب والرسائل إلى ملوك الدول في عصره يدعوهم إلى الاسلام باللغة العربية وحدها ، ادعوك بدعاية الاسلام - أن تؤمن بالله وحده وعندما كانت هذه الرسائل تصل إلى أصحابها يأمرهم بترجمتها لإدراك ما تحويه من معان وأغراض .

وتمسك الرسول باللغة العربية في مخاطبته الملوك هو الاجراء السديد المنسجم مع عزة المؤمنين ومع علو رسالته وصدق دعوته ، فانه مرسل بالدعوة الاسلامية التي مصدرها هذا القرآن العربي في لغته وأسلوبه ، والدعوة الاسلامية هي دعوة التوحيد في العقيدة والغاية ومن لوازمها توحيد النظام والفكر ومن لوازم ذلك كله توحيد اللغة التي يعبر بها عن ذلك كله والا أصيبت العقيدة والنظام والغاية بالاضطراب والفوضى فليس من السداد أن ينقض النبي دعوته بتبليغها بلغات متعددة والسنة مختلفة بل لابد من تبليغها بلغته هو والا كانت دعوة عابثة هزيلة .

وهكذا كان الخلفاء من بعده عليه السلام لا يخاطبون الناس عربياً وعجمياً إلا باللسان العربي ولا يصدرهم إلا أوامر والنواهي ولا يوجهون الكتب والرسائل إلى الملوك والرؤساء في العالم إلا باللغة العربية ولم تصدر الأحكام من لدن الخلفاء ولم تدرس الكتب في المساجد والمدارس والجامعات إلا باللغة العربية وحدها ولهذا كانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة في الشؤون

الداخلية والشؤون الخارجية من زمن النبي عليه السلام الى اواخر عهود الدولة الاسلامية ؟

المستشرقون يدركون التلازم :

وقد ادرك هذا التلازم بين الاسلام واللغة العربية كثير من المستشرقين وادركوا ان الآثار العظيمة لهذا الدين انما ترجع الى امتزاج الطاقة العربية مع الطاقة الاسلامية ، وادركوا ان العربية في وجودها التاريخي والواقعي انما هي لغة العقيدة والدين وامتزاجها تنمو الشخصية الاسلامية وتتميز عن غيرها بقوتها وشموخها. فآخذوا يعملون على فصل الطاقة العربية عن الطاقة الاسلامية وتعميق الهوية بينها بشتى الوسائل واتحلالها وقد تأثر بأرائهم نفر من الكتاب حتى ظهر في العالم من يهتم باللغة العربية اهتماما منقطع النظير يؤلف الكتب ويدبج المقالات ويلقي المحاضرات في اللغة العربية وعن اللغة العربية على انها لغة قومية بحث ، فجعلوها لغة فن وحب وجمال ولغة شعر وعطور وأزهار ليبعدوها عن كونها لغة العقيدة ، وعن كونها لغة التشريع والنظام ، وتحقيقا لفكرة الفصل بين الطائفتين ظهرت فكرة الدعوة الى نشر اللهجات العامية الهزيلة بين الناطقين بالضاد امانا في تفتيت وحدتهم اللغوية كما ظهرت في الاجزاء فكرة ترجمة القرآن الى اللغات الاجنبية وظهرت فكرة تغيير قواعد اللغة العربية وفكرة تلقين حروفها وتلقين قواعد كل ذلك من أجل وضع حاجز كثيف بين ابناء هذا الدين وبين مصدر دينهم الاول .

نتائج فصل الطائفتين :

وكان من الطبيعي أن ينتج عن فصل الطاقة العربية عن الطاقة الاسلامية قتل روح الاجتهاد في الشرع الذي به تظهر صلاحية الاسلام لكل زمان ومكان وأصبح الاسلام بعيدا عن الأذهان في روائع تشريعه ، وبعد أن كان اسلاما مؤثرا له سيادته التشريعية وله وجوده الدولي صار اسلاما فرديا تأليفيا يكتب عنه الكاتبون ويقرا عنه القارئون ، وأصبح تشريعه معلومات لا اثر له في الحياة العامة يقتصر وجوده كنظام الحياة على بطون الكتب لا يجد له متنفسا الى عالم الحياة كتشريع ينظم شؤوننا ونظاما يحل مشكلات .

وقد نتج عن فصل الطاقة العربية عن الطاقة الاسلامية أن أصبح المسلمون موزعين بين أجنحة وجدانية مختلفة ، وتقاذفتهم تيارات فكرية متضاربة

ففقدوا وحدة الفكر ووحدة الشعور ووحدة اللغة وأصبحوا وليس لديهم شيء يقدمونه للعالم ويعطونه للانسانية وأضحوا عالة على غيرهم في الفكر والعلم والاخلاق والقيم ، بعد أن كانوا على جانب عظيم من الثراء المادي والثراء الفكري المبدع .

وأصبحت اللغة العربية كذلك تائهة بين ابنائها ، وابتناؤها تائهين في شأنها لا يعرفون عنها وعن طاقاتها الا القليل ويترنحون على اصوات دعوات تدعوهم الى تركها والتمسك باطلاف العامية الرخيصة التي لاتتلاءم مع أمة لها رسالة الخلود بين بني الانسان ، وقد غذيت الدعوة الى نشر العامية من قبل الذين يرون أن اللسان العربي الفصحى سلم الى فهم القرآن والسنة اذ في تغذية العامية وتغذية انتشارها كسر لذلك السلم الذي يرقى به المسلمون الى فهم الكتاب والسنة ومراميتها في اسعاد الانسان ورفعته شأن المسلمين ، ولهذا فان الدعوة الى العامية دعوة مريبة عابثة ، والخوض في تقصي اللهجات العامية واستقراء الفروق بينها خوض فيها لا طائل من ورائه ، فليحذر المخلصون من اضاعة جهودهم في بحثها وبحث الفروق الموجودة بينها ، وليعملوا على واد الدعوة اليها ، وليفكروا في انتشال ابناء أمتهم من حضيضها الى قمة الفصحى التي يتفاهم على صعيدها ابناء هذه الأمة مهما تباعدت أوطانهم ، وأكثر من ذلك فقد أصبح ما كان يراه الاقدمون خسة هو النبيل عند ابناء العصر الحاضر ، فاذا رايت عربيا يتحدث برطانة الاجنبي ارتفع في نظرك بعد أن كان في نظر المبرد خسيسا ، وأصبح متحليا بالنبيل بعد أن كان ابن تيمية يراه مرتبكا مكروها .

كما صار بعضهم يصفها بالجمود تارة وبالقصور تارة اخرى ، وبأنها لاتستجيب الى مطالب الحياة الحديثة ويقوم نفر بالدفاع عنها بحرارة وحماسة ، وها هو الشاعر حافظ ابراهيم يستنكر على من يزعم أن اللغة العربية لغة عقيمة جامدة ويستتهجن أن توصف بالقصور وعدم الاستجابة الى مطالب الحياة الحاضرة ، ويلوم أهلها على ضعفهم ويعبر عن استهجانه واستنكاره ولومه بأبيات من الشعر على لسان اللغة العربية ومنها :

أيطربكم من جانب الغرب ناعب
ينادي بوادي في ربيع حياتي
وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن أي بها وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آله
وتسجيل أسماء لمخترعات

أتوا أهلهم بالمعجزات تقننا
فيا ليتكم تأتون بالكلمات

مستقبل اللغة العربية متلازم مع مستقبل هذا الدين :

اللغة هي مجموعة من ألفاظ موضوعة للتعبير عن أشياء ومعان أي هي توالف خاصة تشتمل على معان معينة والدافع الأصلي لوضع اللغة أية لغة هو أن الإنسان كما قالوا قديما « مدني بالطبع يحتاج إلى غيره من أبناء جنسه » ، فإنه لا يستطيع مطلقا أن ينفرد بالقيام بشؤون معاشه ولا يقدر أبدا أن يستقل بتحقيق ما يحتاج إليه من غذاء وكساء ومسكن ، فاجتماعه مع غيره أمر تحتته فطرته ولهذا فهو مضطر إلى العيش مع غيره من بني الإنسان اضطراريا فطريا فكان لا بد من أن يعرف كل فرد غيره ما في نفسه وأن يبين له ما يحتاج فبرزت الحاجة إلى اللفظ يتعرف الواحد بها عما في ذهن الآخر ويعرفه عما في ضميره وهذا لا يتأتى بشكله الصحيح إلا باللغة .

فكان الدافع لوضع اللغات هو التعبير عما في النفس تحقيقا لغريزة البقاء في الإنسان ، والعرب كغيرهم من شعوب الدنيا وهم من بني الإنسان عاشوا معا في بيئتهم فوضعوا اللفاظ خاصة كونت على الأيام اللغة العربية لتحديد معاني الأشياء التي تحيط بهم وتقع في بيئتهم وقد اعتنوا بجمال الالفاظ وحسن هيئتها ، ولهذا كانت اللغة العربية قبل الإسلام لغة تومية بحتا ، وقد عرفت اللغة العربية بأنها عبارة عما حفظ من كلام العرب الخالص ونقل عنهم من الالفاظ الدالة على المعاني وهي لغة العرب البلغاء .

والحكم على اللغة توة وضعفا يعتمد على مدى قدرة هذه اللغة في التعبير والابانة عن الأشياء والمقاصد وفي الترجمة عن خلجات النفس وأحاسيس الإنسان ومتطلبات العقل وبقاء اللغة يعتمد أولا وأخرا على استعمال اللفاظ من قبل الناس فإذا التزم الإنسان التحدث بلغة كانت اللغة حية وإذا هجرها أخذت في الانقراض والموت .

ولهذا تعمل الدول دائما وباستمرار على نشر لغاتها وحمل الناس على التحصن بها لتبقى حية ولتستطيع الدول نشر آرائها وأفكارها ونظمها بين الناس ، فمثلا استولت بريطانيا وفرنسا على عدد من أقطار العالم فكان لوجودها في تلك الأقطار الأثر الظاهر في نشر اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية بين شعوب تلك البلدان ، وتعمل كافة الدول المستعمرة على نشر لغاتها في البلدان المستعمرة بكافة الوسائل وتجعلها اللغة الرسمية التي يجري بها التخاطب الرسمي ، إلا أن الجماعات والشعوب مالم تقتنع بصواب عقيدة التوي وصواب غايته وشرف مقاصده ونبل مراميه بحيث يتصل ذلك بأحاسيسها فإن الاستعمار يعمل على نشرها وإذا تحقق انتشارها في فترة من الزمن فإنه لا يكون لها بقاء بل يكون انحسارها أمرا محتما .

فهناك فرق كبير بين انتشار اللغة العربية في الأقطار التي فتحها العرب الأوائل وبين انتشار لغات الدول المستعمرة (بكر الميم) في الأقطار التي استولت عليها إذ يرجع انتشار اللغة العربية إلى أنها لغة العقيدة والدين والرسالة المنسجمة مع فطرة الإنسان مهما كان لونه ومهما كانت لغته ، وأما لغة المستعمر فأنها لغة المستثمرين الجشعين الذين استولوا على الأقطار بدافع حب السيطرة وبدافع حب الاستقلال فبقى لغتهم ما دامت سيطرتهم وما دام استثمارهم وتنحسر بانحسار سيطرتهم ، وأما لغة العقيدة فبقى ما بقي الدين .

ولاشك في أن سيطرة الغرب السياسية والعسكرية والفكرية والاقتصادية على المنطقة الإسلامية لا بد أن تزول مهما طال أمدها ومهما تبدلت صورها وأشكالها ومهما نسجوا لها من مخططات لتبقى لأنها قائمة على أساس متداع سريع التقوض والافول وليس لأصحابها في نفوس المسلمين أية روابط من الود والاحترام والاخلاص فلسوف يتقلص هذا النفوذ وتلك السيطرة ، ولا بد لهذا الكتاب العربي من العودة إلى حياة المسلمين يتنفسون في ظل أنفاس الرضى ويعبون في ظل ماء الحياة ولسوف ترجع العربية لغة قوية يتفاهم على صعيدها أبناء هذا الدين .